المجذوب ناقداً اجتماعياً

محمد المهدي بشرى

مقدمة

"والشعر ليس بهرجاً وإنما هو مفتاح لكثير من الحقائق الإنسانية. وأحسب أنني كنت أفتش لنفسي عن مخرج في الشعر، فما كنت واقفاً في نقطة واحدة وقد أطرق الأبواب فلا تستجيب، وقد أتحير طويلاً ثم أتحرك، كنت أحاول أن أتجاوز حتى نفسي، لقد طال توقفي أخيراً. كأنني أبحث عن شئ. كأنني ما عرفت نفسي قط.."[١]

هكذا يقدم المجذوب نفسه باعتباره شاعراً ذا رؤية موضوعية ينظر للشعر كأداة من أدوات المعرفة. ولم يكن المجذوب بحاجة لمثل هذا الاعتراف، فتاريخه الشعري ومساهمته في الثقافة السودانية يؤكدان جدية نظرته للشعر ومصداقية اعترافه هذا.

إنَّ هذه الدراسة تحاول الإحاطة بملمح واحد من ملامح هذه العبقرية الشعرية ألا وهو ملمح النقد الاجتماعي. ولعل هذا الملمح هو أكثر ملامح هذه العبقرية عمقاً وأصالة. وبداية لابد من الإقرار بصعوبة الفصل بين هذه الملامح، فشاعرية المجذوب كل لا يقبل التجزئة، وهي كالجوهر المصقول لابد من النظر إليها وهي تتشكل وتضئ من جميع جوانبها، إذ يمكن القول بأن المجذوب كان شاعراً للحرية وهو أيضاً شاعر البسطاء. ويرى بعض النقاد أن المجذوب هو" شاعر المرأة واللذة الحسية..."[٢]، وبنفس القدر يمكن القول بأن المجذوب شاعر الجنوب، إذ يشكل الجنوب جزءاً ليس باليسير في تجربته الشعرية. لكن هذه الملامح جميعها – كما ذكرنا – لا تنفصل عن بعضها البعض بقدر ما تتصل بخيط واحد هو أصالة الشاعر وصدقه الفني. وجميع هذه الملامح تتفق في معنى واحد، هو الحرية

(١) محمد المهدي المجذوب في حواره مع أبو ذكرى، مجلة الثقافة السودانية، العدد الأول، نوفمبر ١٩٧٦، صفحات ١٠٨– ١٣٠.

(٢) انظر مثلاً عبد الرحمن الخانجي، "درس وتحليل ديوان نار المجاذيب"، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة الخرطوم، ١٩٧١،

بحيث يمكن القول إن المجذوب شاعر الحرية. ونقصد هنا الحرية بمختلف مستوياتها، الفردية والسياسية والاجتماعية. وفي جميع هذا نجد الشاعر ينشد ضالته الكبرى. الحرية . لذاته ولشاعريته ولوطنه وللإنسان في هذه المعمورة، لذا لم يكن من الغريب أن نجد في ديوان الشاعر قصائد تنضح بالقسوة والمرارة احتجاجاً على بؤس الواقع الاجتماعي مع حلم الشاعر ويقينه بإشراق عالم ينتفي فيه القهر الاجتماعي. وكان بالضرورة لهذا النقد أن يصب في نهاية الأمر في مجرى توق الشاعر للحرية والتمرد على هذا الواقع المحبط. ولعل قصيدة "انطلاق" هي أسطع برهان على عشق الشاعر للحرية.[٣] فهذه القصيدة هي بحق "منفستو" صادق يعلن فيه الشاعر موقفه الاجتماعي ومبدأه الجوهري الذي لا يخرج عن الشوق للحرية. وقد كتبت هذه القصيدة والشاعر حديث عهد بمجتمع الجنوب بكل ما فيه من انطلاق وتحرر من كافة القيود الاجتماعية التي كبلت الشاعر في إطار القبيلة، لذا كان الجنوب ملاذاً للانعتاق والتحرر. وتمثل قصيدة "انطلاق" أول إعلان من قبل الشاعر بقبوله لهذا المجتمع الجديد، وتعلن القصيدة تعميده بوهيمياً عاشقاً للحياة، وهذا ما صوره الشاعر في قوله:

"فليتني في الزنوج ولي رباب
تميل به خطاي وتستقيم
أجمشه فيجفل وهو يشكو
كما يشكو من الحمي السقيم
(إلى أن يصل قوله)
طليق لا تقيدني قريش
بأحساب الكرام ولا تميم
تركت القيد عند أبي لغيري
وقيدتني التجارب والهموم"

(٣) المجذوب، محمد المهدي، نار المجاذيب، الخرطوم: وزارة الإعلام والشئون الاجتماعية، ط١، ١٩٦٩، ص ٣١-٣٣.

وسيظل الشاعر على وفائه لهذه المبادئ ولعالم الجنوب الذي يمثل المعادل الموضوعي للحرية والانطلاق لديه. وليس الشاعر على استعداد للرضوخ والإذعان للمسلمات. حتى في أسلوبه الشعري نجده يتمرد ويخرج على أساليب المقلدين والمجددين على السواء ليكتب الشعر كما يروق له، وهولا يرفض هذه الأساليب بشكل عبثي ولكن بوعي تام بهذا الموقف إذ يقول:

"ثم عدت لأكتب شعراً على كيفي غير مبال بالفريقين المجددين والمقلدين لإحساسي العميق بأن الشعر السوداني مأخوذ من أعماق هذا البلد في أي صورة جاء، وأنني أسعى إلى هذا الوطن بما أعاني من شعر ولغة".[٤] انظر تصوير الشاعر لإحساسه بمسئوليته كمبدع تجاه الوطن، فالشعر أمانة ومسئولية، لذا لم يكن غريباً أن يكون المجذوب أكثر شعراء جيله عطاء، وأكثرهم أصالة وصدقاً مع الذات والآخرين. ولما كان موضوع هذه الورقة هو النقد الاجتماعي عند المجذوب، كان لابد من هذه المقدمة لتبيان أن المجذوب باعتباره ناقداً اجتماعياً لا يرفض فحسب بل يطرح رؤيته للمستقبل الذي يحل بديلاً عن الحاضر، مستقبل تسود فيه الحرية.

تهمنا هنا قصائد خمس كتبت على فترات مختلفة، وهي قصائد "الراحة"، و"حياة"، و"العنان"، ثم قصيدتي "بائعة الكسرة"، و"أم الناس".[٥] هذه القصائد جميعها كتبت في الفترة من نهاية الخمسينات وهو تاريخ قصيدة "حياة" وتنتهي في أوائل الثمانينات، أي قبل وفاة الشاعر بشهرين فقط. لذا يمكن القول بأن هذه القصائد تغطي قطاعاً طولياً لمواقف اجتماعية للشاعر على امتداد عقود ثلاثة من الزمان، هي تلك العقود التي تألقت فيها شاعرية المجذوب وتطور معمار القصيدة لديه منذ أن بدأ تلميذاً للقصيدة العمودية وأعلامها

(٤) المجذوب، محمد المهدي: ديوان الشرافة والهجرة، الخرطوم: دار التأليف والنشر، جامعة الخرطوم، ١٩٧٣، انظر خاصة المقدمة بقلم الشاعر، ص ١٠.

(٥) (الراحة)، (الحياة) و(العنان) من ديوان نار المجاذيب، (بائعة الكسرة) من ديوان الشرافة والهجرة ، دار التأليف والترجمة والنشر، جامعة الخرطوم، ١٩٧٣، وقصيدة أم الناس منشورة في مجلة الدوحة العدد ٧٣، يناير ١٩٨٢.

كالمتنبئ والبحتري وأبي تمام إلى أن أصبح صاحب مذهب شعري انفرد به ونبغ فيه.

هذا المذهب أقرب ما يكون للمدرسة السريالية[٦] خاصة أسلوب أشهر رواد هذه المدرسة بول أيلوار ولويس اراغون. ويمكن تلمس القصيدة السريالية عند المجذوب في ديوان البشارة والقربان،[٧] وأيضاً في أخريات قصائد الشاعر خاصة قصيدة "الساعة الثانية".[٨] تعبر هذه القصائد الخمس بصدق عن موقف الشاعر الاجتماعي والسياسي، أي آيديلوجيته. وهذه الآيديلوجية تكشف عن ناقد اجتماعي نافذ الرؤية يحشد في شعره تصويراً لواقع بلاده مع إدانة واضحة لهذا الواقع، ومع التركيز على بشاعته هذا الواقع. في ذات الوقت يومئ الشاعر للزمن الآتي حيث يتبدل الخوف أمناً والبشاعة جمالاً. وتجدر الإشارة هنا لاختلاف النقد عند المجذوب عن نقد غيره من الشعراء خاصة نقد معاصريه من رواد الواقعية مثل الناصر قريب الله وجماعة الواقعية الاشتراكية، أي أولئك النفر من شعراء اليسار الذين اعتنقوا مبادئ سياسية تتلخص في الإيمان والمناداة بالاشتراكية العلمية مثل تاج السر الحسن، جيلي عبدالرحمن، محي الدين فارس وصلاح أحمد إبراهيم. فلا نجد عند المجذوب قوة التحليل السياسي وجهارة الإدانة كما عند الناصر قريب الله مثلاً للدرجة التي يصبح الشعر فيها أقرب إلى المقال السياسي. انظر مثلاً قول الناصر:

"كم في بقاع الأرض تثري حفنة
وعلى حساب الكادحين ثراؤها
حسب البلاد تأخراً وفضيحة
أن يصبحوا مرضي وهم أعضاؤها

(٦) انظر عبد الله علي إبراهيم، "المجذوب نعمة فينا"، فساد الأمكنة، الخرطوم: دار جامعة الخرطوم للنشر، ١٩٨٦.
(٧) صدر عن دار جامعة الخرطوم للنشر، ١٩٧٩.
(٨) مجلة الدوحة، أبريل ١٩٨٢.

لا يبتغي العمال إلا دولة
للكادحين سرورها وبكاؤها"[٩]

بينما نجد أن صلاح محمد إبراهيم مثلاً يلجأ لحشد تفاصيل الواقع الاجتماعي مما يدل على عمق الفهم السياسي، هذا الفهم الذي يقود الشاعر للانحياز للطبقات الفقيرة والوقوف مع المقهورين على امتداد العالم[١٠] لكن المجذوب أكثرهم التصاقاً بهؤلاء البسطاء والمضطهدين. وكما نعرف فإن المجذوب لم يجد حرجاً أن يوقع أولى قصائده بانتمائه لهؤلاء البسطاء ويقول: "ولقد أفدت كثيراً من مخالطة الناس خصوصاً المساكين، فلديهم صدق أخاذ نقصني وشقاني".[١١] وفي القصائد التي نحن بصددها نجد الحب العميق الذي يصل درجة العشق لهؤلاء البسطاء. وإذا كان شعراء الواقعية الاشتراكية الذين يتجاوزون المجذوب أكثر حدة ومرارة في باب النقد الاجتماعي، وهو كما نعلم لم ينحاز لحزب سياسي بعينه، ولا نعرف له إيماناً بمذهب سياسي سوى وقوفه مع الحزب الجمهوري في فترة مبكرة من تاريخه الشعري، لكن هذا لم يحل دون رؤية المجذوب النافذة للأمراض الاجتماعية، ودون أن يضع يده على جراح الوطن حتى يكاد يكون النقد الاجتماعي لديه ديواناً قائماً بذاته. ولنفصل ما نقول ننظر إلى القصائد التي تم اختيارها لهذا الغرض.

أولي هذه القصائد هي قصيدة "حياة" التي يهديها الشاعر إلى أطفال المساكين. وهذه القصيدة هي فاتحة عهد جديد في تجربة الشاعر، ألا وهو عهد انحيازه للمساكين والبسطاء

(٩) الناصر قريب الله، الناصريات (مجموعة شعرية)، لجنة التأليف والنشر، ط١، وزارة الإرشاد القومي الخرطوم، ١٩٦٨ – ١٩٦٩.

(١٠) انظر مثلاً قول صلاح أحمد إبراهيم:

"يا ليتني رصاصة تطلقها الجزائر
أو شمعة ساحرة تؤنس ليل ساهر
أو كلمة السر تقود ثائراً لثائر".

من ديوان غابة الأينوس بيروت: منشورات دار مكتب الحياة (ب.ت) وانظر أيضاً قصيدته (عشرون دستة)، صفحات ٢٢-٢٥.

(١١) من مقدمة نار المجاذيب، بقلم الشاعر، ص ١٣.

وأوقف القصيدة على وصف آلامهم. وقد ظل المساكين الهاجس الأول للشاعر وأوجاعهم هي أوجاع الوطن. ولم يكن مصادفة أن يحدث المجذوب شكلاً شعرياً ليلائم المضمون الشعري الجديد، إذ يواصل الشاعر تمرده على القصيدة العمودية ويختار أسلوباً أقرب ما يكون لأسلوب القصص الواقعي.

وقد وفق الشاعر في انتخاب هذا الشكل لمضمون قصيدته الجديدة. ولا ريب أن المجذوب نظر لتيار الواقعية التقليدي الذي انتظم العالم العربي وخاصة مصر في أوائل منتصف القرن الماضي، والتي تأثر بها مبدعون سودانيون كانوا طليعة التيار الواقعي في الأدب السوداني مثل الشعراء جيلي عبدالرحمن، والفيتوري، ومحمد محمد علي. ومن كتاب القصة والرواية خليل عبدالله الحاج، وأبوبكر خالد، وحسن الطاهر زروق وملكة الدار محمد. ولم يكن المجذوب وحده الذي استجاب لتيار الواقعية، فهنالك رهط من معاصريه مثل توفيق صالح جبريل وإدريس جماع والناصر قريب الله، جميعهم أنزلوا الأمر من سماوات الرومانسية إلى جذور الواقع الاجتماعي، وأثروا بهذا الأمر القاموس الشعري وأصبحت الكلمة شاعرية بقدر استجابتها للغرض الشعري وبقدر ما تومئ. ففي هذه القصيدة (حياة) لا يتردد الشاعر في استعمال مفردات مثل "الجرادل"، "الصديد"، "براميل"، "القذر"، "الذباب" ..... الخ، كل هذا في محاولة لإعطاء لوحة صادقة عن الواقع. فالقصيدة تبدأ بوصف البؤس الذي يعيشه الشاعر يقول:

"يزور أسرتي السقم
فأسقم
وأجرع الغموم والهموم والكدر
وأدمن السهر
وملء دارنا الذباب والتراب والقذر"

لكن بالرغم من هذا البؤس وفي قلب هذا الوحل نجد الحياة تؤكد عنفوانها، وهاهم الأطفال يضحكون بفرح صادق وشقاوة عذبة؛ يقول الشاعر:

"وفي الضحى أطفالنا على الطريق يلعبون ويلعبون
ويضحكون حين يزلقون
عارين إلا من مفارح الصغر
ويهدمون ما يبنون من صور"

وبالرغم من مرارة الواقع يمتلئ الشاعر بآمال المستقبل الذي حتماً سيشرق، لذا تنتهي القصيدة بالغناء لهذا المستقبل؛ يقول الشاعر:

"وفي الحقول العفنات ينبت الزهر
مطهراً يغسله المطر
ويستريح في جماله الصبر
وإنه رجاء
ويا له رجاء
من خاطر كأنه السماء
فوق التراب والذباب والقذر"

ونجد في القصيدة ثنائيات هي: الفقر والغني – الحاضر والمستقبل – المرارة والفرح وهكذا ... هذه الثنائيات ظاهرة عامة في شعر المجذوب كثيراً ما يستخدمها لإضفاء ألوان متباينة في لوحاته الشعرية، تماماً كاستخدام الأبيض والأسود في السينما. وتجدر الإشارة إلى إن هذه القصيدة مع القصيدتين الأخريين (الراحة) و(العنان) كتبت في ظل الحكم العسكري الدكتاتوري قبل اندلاع ثورة أكتوبر١٩٦٤ م، و تتفق القصائد الثلاث شكلاً ومضموناً، بل أن الشاعر يكرر الكثير من المفردات مثل: الذباب، المنازل، الجرادل... الخ، كما يكرر بعض التعابير والمعاني مثل صورة الأطفال الذين قدر لهم أن يوجدوا في ظل البؤس. إن هذه القصائد – في تقديري – ما هي إلا مقاطع من قصيدة طويلة كتبت على فترات متباعدة. فنجد قصيدة "الراحة" يمهد لها الشاعر بشيء قريب الشبه بقصيدة "حياة" حيث يقول:

" تزدحم المنازل
وتطفح الجرادل
وتحتها وفوقها تفور بركة القذر
ضاق بها الذباب فطار وانتشر"

وكما في قصيدة "حياة" أيضاً يلتفت الشاعر للأطفال مصوراً بؤسهم وهزالهم فيقول:

"وأعين الصغار لا ترى
وأعين الصغار في مذابح الرمد
بكيت في الدجى من الكمد
وفي حشاي أعين الصغار"

وفي ذات الوقت يعزي الشاعر جارتيه اللتين لم تجدا سوى الخضوع للمصير المحتوم قائلاً:

"يا جارتاي تؤمنان بالقضاء
والخير والأجر من السماء
وتهتفان بالدعاء
ما لي عزاء .."

وكدأب الشاعر نجده يستخدم الثنائيات، حيث يصور في هذه القصيدة نعيم وثراء الطبقة المترفة كنقيض لبؤس وشقاء الفقراء. وفي الثنائية إشارة من الشاعر للفوارق الطبقية بين فئات المجتمع. فها هي الجارة تؤمن بالقضاء والقدر وهي لا تدري أن ثمة أناس لا يعرفون المرض يقول:

"وفوق شاطئ النهر
تعرت القصور في مآذر الشجر
ناعمة الأصال والبكر"

و مهما ابتأس الحال فلا يتزعزع يقين الشاعر بالمستقبل الآتي الذي سيقهر كل هذه الدمامة يقول.

"أحمل إلينا الصباح يا بشير
وعد يا حمام بخضرة السلام"

وفي منتصف القصيدة يقدم الشاعر منظوره العلمي للواقع السياسي الذي أفرز هذا الواقع الاجتماعي، وينفجر في وجه هذا الفساد على عادة شعراء الواقعية الاشتراكية فيقول:

"من ذا يقول للفساد يا فساد
يا مالك العباد يا فساد
ألم تطف بقصرك المنور المنير
ذبابة من موكب البعير
تحمل من أشيائنا الكثير"

وبهذه الإدانة يتقدم الشاعر خطوات في اتجاه تأصيل نقده الاجتماعي، ولم يعد الواقع هلامياً كما كان في قصيدة "حياة". والشاعر بهذا الفهم العلمي يتجاوز الشكوى إلي الصراخ والاحتجاج ضد الظلم. ففي قصيدة "العنان" نجد فهماً أكثر دقة لهذا الوضع الاجتماعي. حيث تجسد الظلم والقهر الاجتماعي في صورة حصان وحشي، ولكن الإنسان بوحدته وباستخدام العقل يقضي على الحصان ليتحقق مجتمع الأمان والحرية. ويمكن القول بأن هذه القصيدة أكثر القصائد نضجاً وتألقاً شعرياً، إذ يستخدم الشاعر فيها الرمز بصورة مكثفة مع مواصلة لأسلوبه الذي رأيناه من قبل باستخدام الثنائية كالموت والحياة – الهزيمة والنصر – القهر والحرية. فمثلاً يصور الشاعر الموت أو العدم الذي يجئ نتيجة منطقية وحتمية للقهر الاجتماعي (الحصان) بقوله:

"وتسكن الأثداء لابدات
ويشرد اللبن

وتعلق العيون بالظلام
طاف بها من الردى خيال"

لاحظ مفردات "تسكن" و"يشرد" و"الردى" وهي مفردات حاملة لمعاني العدم والنفي لتعطينا صورة الهمود. ويقابل الشاعر هذه الصورة ذات الظلال القاتمة بصورة الحياة المشرقة التي انبثقت بكل عنفوان بعد انتصار الإنسان على القهر في قوله:

"وارتعش الطريق بالضياء والفرح
وكل ربع في ظلاله صدح
وضوأ القدح
وصاحت الكرمة والدنان
ليسعد الإنسان بالنسيان والأمان"

فنجد هنا مفردات "الضياء"، "الفرح"، "صدح"، "ليسعد" و"الأمان"، وجميعها مفردات تعطي معان بهيجة ومشرقة، بل إن الشاعر يمضي ليفجر في قصيدته حكمة إنسانية على لسان المغني ، وتكون هذه الحكمة مركز ثقل وبيت القصيد وهي قول المغني – والذي هو قناع فحسب للشاعر:

"ليس الضعيف بالضعيف يا زمان
وكل طغيان له عنان"

وفي الأبيات التالية من القصيدة يستطرد الشاعر في هذا المعنى، حيث يلتفت لعذابات المسيح ثم يشير إلى هجرة النبي صلى الله عليه وسلم هارباً من عذاب الكفار. وبهاتين القصيدتين يومئ الشاعر إلى مجد الإنسان وانتصاره ضد كافة أشكال الشر. وكما في القصيدتين الأخريين يختم الشاعر القصيدة بمخاطبة الأطفال الناعمين في المهود مبشراً إياهم بحتمية الانتصار:

"يا أيها الصغار في المهود ناعمين
مبرأين حالمين بالوعود
في كل مهد عالم جديد

ليس به حصان
يجري بلا عنان
وإنما أمان
أشرق فيه الحب والحنان"

ويلاحظ أن الإشارة للأطفال "تيمة" تتكرر في شعر المجذوب ودائماً ما تجئ صورة الأطفال وهم يلتفون حول الأم التي لا تملك لهم سوى حبها وحنانها. ففي قصيدة المولد يقول الشاعر:

"لهفة كم عصف الجوع بأطفال صغار
وردوا المولد بالشوق وعادوا بالغبار
ويح أم حسبوها
لو أرادوا النجم جاءت بالدرار
ويحها تحمل سهد الليل في صحو النهار"[١٢]

وفي قصيدة "الراحة" تذوب الأم فوق طفلها العليل ولا تملك له سوى الرجاء. والشيء نفسه نجده في قصيدتي "بائعة الكسرة" و "أم الناس".

على كل حالٍ فإن الشاعر أكثر عطفاً ورقة على الأطفال، إذ هم أكثر الناس حاجة إلى الأمن والحنان، وفي ذات الوقت هم أكثر الناس تأثراً بالبؤس الاجتماعي.

والقصيدة الأخيرة هي قصيدة "أم الناس". وتجدر الإشارة إلي أن الشاعر تناول ذات الموضوع في ثاني أعماله الشعرية الشرافة والهجرة في قصيدة بعنوان "بائعة الكسرة". ولكن بالرغم من اتفاق القصيدتين في السياق العام إلا أن القصيدة الأولى تبدو كمقدمة أو تمرين لكتابة القصيدة الثانية. ولا شك أن عوامل عدة تدخلت لتصنع فروقاً واضحة بين القصيدتين منها مثلاً تقدم السن بالشاعر وتجاوزه أو تخليه عن أساليب الشعر التقليدي، إضافة إلى نضوج الرؤية الاجتماعية لدى الشاعر مما نحسه بوضوح في القصيدة الثانية.

(١٢) نار المجاذيب، ص ٨٧-٩٥.

فالشاعر يتجاوز الشكل العمودي الذي كتبت به القصيدة الأولى، التي جاءت عالية الصوت جهيرة النبرات لدرجة الخطابية، بل إن الشاعر يختم القصيدة بأبيات تقريرية مما درج عليه في قصائد الحماسة حيث يقول:

"ستجمع الناس أوجاع سواسية
كما صفا لبن الميلاد بالوجع
سنخرج الظلم ربانا نثور به
حتى نسوي موجاً غير مرتدع"

وهاهو الشاعر يرتدي قناع واحد من المقهورين، أولئك الذين لا يجدون ذواتهم إلا في الجماعة. والشاعر لا يجد صعوبة في إخفاء عواطفه تجاه بائعة الكسرة للدرجة التي يخاطبها فيها معبراً عن تلك العواطف حيث يقول:

"لأنت أشرف من فكر بلا عمل
أثرى وروج زيف العقد بالبدع"

وقصيدة "أم الناس" وهي من أخريات أعماله المنشورة، تحوي الكثير من الملامح الأساسية لشاعرية المجذوب، وهي بحق تتويج للنقد الاجتماعي الذي انبرى له الشاعر منذ أن تفتحت بصيرته على أوجاع الوطن. ففي القصيدة يختار الشاعر بائعة الكسرة بكل صبرها وجسارتها لتجسد الإنسان الطيب المكدود الذي يحافظ على نقائه ونبله بالرغم من وحشية السوق الذي صار مستنقعاً يعج بكل الرذائل. وبائعة الكسرة جسر يعبر منه الشاعر للغد الزاهر يقول:

"وجهك هذا الباسم
الصبر تفاءل
ما أجمل هذا الحزن الصابر
ما أجمل هذا العمل الساهر"

ويستطرد الشاعر مغنياً لهذا الأمل السمح الذي يومض في وسط عتمة مجتمع لا إنساني، وتظل أم الناس ما تبقى من إشراق ووعد للشاعر ولغيره من الملايين الكادحة يقول:

"يا أم الناس جميعاً لا يشرون الكسرة بل يجنون بهاء صفائك"

لذا تصبح القصيدة كلها أهزوجة ونشيداً للفرح والأمل، حتى الدموع تصير ألواناً تتفتح وجراحات تنضج بالذكرى. ويلاحظ انتقاء الشاعر لمفردات تعطي لوحة بائعة الكسرة ألواناً وظلالاً مشرقة وزاهية مثل: "ريا"، "سماحتك"، "حنان"، "تومض"، "الفجر"، "الشمس" و"البدر". ويلاحظ أيضاً سيادة اللون الأبيض على مساحات هذه اللوحة. فالشاش أبيض وثوب المرأة أبيض، والمرأة نفسها تشرق في سواد ظلمة السود. ومن خلال هذا يكون من السهل تلمس شغف الشاعر بالألوان، حتى الدموع في القصيدة هي ألوان. ولعل الشاعر بهذا الشغف يسعى لتعويض ضعفه تجاه الألوان، فهو قد تاق في مرحلة مبكرة من حياته لأن يكون رساماً يمزج الألوان والظلال فيفجر فيها عوالم شتى.[١٣] وقد ظلت هذه الرغبة كامنة في دواخل الشاعر وما فتئت تعبر عن نفسها بأشكال مختلفة. وهذا الإحساس المرهف بالألوان جعل الشاعر يرى الدموع ألواناً والجراحات زهوراً تتفتح بالإشراق، وهنا يمكن تلمس بعض أصداء الأسطورة الشعبية التي تحكي عن عذابات الفقراء المقهورين، حيث تجئ قوتهم وضعفهم، من الدموع والعذاب. "فالدمع ليس دمعاً بل لؤلؤاً والجراحات تصدح بالانتصار". وقد أثبت صلاح أحمد إبراهيم هذه الملاحظة حول ذات الموضوع في متن دراسته الرائدة حول شعر التجاني يوسف بشير.[١٤]

(١٣) انظر قول الشاعر: "ما كنت أعد نفسي في الشعراء فقد اشتهيت أن أكون رساماً ولم أفلح"، وذلك في مقدمة نار المجاذيب، ص ١٥.

(١٤) انظر صلاح أحمد إبراهيم، "الجرح والقوس"، دراسة نقدية في دراسات في شعر التجاني، مطبوعات جماعة الأدب السوداني، الخرطوم ١٩٦٢، ص ٣٨-٦٠ .

على كلٍ ليست هذه المرة الأولى التي يتكئ فيها الشاعر على الأسطورة والتراث عامة، فقد وظف مضمون أسطورة "فاطمة السمحة" في قصيدة "العنان". فالإنسان في القصيدة انتصر على الشر بالحيلة الذكية، أي باستخدام العقل، وهي الحيلة التي تلجأ إليها النساء بأن يصنعن من شعورهن شراكاً أوقعت الحصان. وفي منتصف قصيدة (أم الناس) يعبر الشاعر عن فخره بما تؤديه المرأة من خير للمجتمع الإنساني وذلك من خلال عملها حيث يقول:

"أهواك
عزيمتك الغراء
وهذا العمل الطيب منذ الفجر على رأسك
وجلست به كالوردة رياً تومض في ظلمات السوق المستنقع"

فالمجذوب على عهده في الفخر بنضال الإنسان البسيط المكافح من أجل استرداد حقه في الحياة بالعمل الشريف، يعبر عن هذا الفهم النبيل في قصيدة بائعة الكسرة بقوله:

"ملأت صحني كدحاً كم شقيت به
وترغبين جميل الشكر في شبعي"

ويتكرر هذا المعنى في العديد من قصائده، ففي قصيدة "ماسح الأحذية" مثلاً يقول:

"عمل كاسب ويتم
ولا يدري وأدري
وضاع يوم الحساب
لم أجد راحة وعاتبت نفسي في حياء
وما يفيد حسابي"(١٥)

(١٥) الشرافة والهجرة، ص ١٦١.

وفي قصيدة "بائعة الفول"[١٦] يسجل الشاعر نشوة الانتصار التي يشرق بها وجه المرأة العاملة وهي تمارس عملها بحذق ومهارة:

"في كل حبة مقلية مملحة
رحبة مجنحة"

فالمرأة في قصيدة "أم الناس" بالرغم من حزنها تسمو على الواقع المهترئ، فهي وحدها تتماسك باعتبارها إنساناً جسوراً متجاوزاً للترهات والأكاذيب والطمع وغير ذلك من أدواء المجتمع يقول:

"ما أجمل هذا العمل الساهر
يتخطى الشر الصادح في الصفحات وفي التلفاز وفي المذياع
يتخطى اللغو والساعين إليه بأطماع شوهاء"

لكل هذا تصبح بائعة الكسرة تجسيداً للقيم النبيلة، وهي الوطن بما تمثله من صحو وكبرياء، بل هي أم الناس، وهي لا تستمد قوتها من قوى خارجية ولكن من الناس جميعاً، وهاهي يشد من أزرها سجين خلف القضبان يسأل ظله عن ظلها، وأطفالهم هم أطفال الشاعر، وتنتهي القصيدة بتماسك الشاعر وفرحه بالانتصارحيث يقول:

"أقبلت عليك أطهر نفسي من أعبائي
أتعلم منك الخير الكاسب"

الخلاصة

إن هذه القصائد الخمسة تعكس فلسفة الشاعر الاجتماعية، وهي مجرد نماذج لرصيد ضخم من القصائد مبثوث في الأعمال الشعرية للمجذوب. فلو تأملنا فهرس نار المجاذيب لوجدنا عناوين مثل: نشال، الفقر، الأبله، ماسح الأحذية، بائعة الفول..الخ أما فهرس الشرافة والهجرة فنقرأ فيه: مزاد الموظفين، المساكين، الفتاة والبن، ماسح الأحذية، وبائعة الكسرة. هذا عدا المقاطع التي أفردت للفقراء والمساكين في ثنايا الكثير من القصائد،

(١٦) نار المجاذيب، ص ٣١٨.

مما يدل على شغف الشاعر بعوالم هؤلاء الفقراء. والشاعر قد يكرر في بعض الأحيان ذات الموضوع، ولكن بمنظور جديد ورؤية مختلفة كما رأينا في موضوع بائعة الكسرة وموضوع ماسح الأحذية. لا ينظر المجذوب للفقر بمنظور تجريدي، بل يراه دافعاً وحافزاً من أجل تحقيق آدمية الإنسان. على كلٍ فإن هذه القصائد تعبر عن رؤية المجذوب وعن موقفه الإنساني، وقد يكون من الصعب تصنيف الشاعر في المدارس الشعرية المختلفة. وبالرغم من اتساق الموقف الاجتماعي عند المجذوب وانسجامه، إلا أن هذا لا يعطينا تبريراً لاعتباره منتمياً لهذه المدرسة أو تلك. وقد لاحظ بعض الدارسين هذا الأمر وحاولوا تفسيره في تجدد رؤية المجذوب الاجتماعية وشمول هذه الرؤية، انظر مثلاً قول سامي سالم: "ارتفع المجذوب بطاقته الشعرية على كل التقسيمات المدرسية في حقل الشعر، ولم يستطع تصنيف عقائدي أن يضم قصائد المجذوب في حدوده. لقد أحتوى شعر المجذوب على كل النوازع الإنسانية والاجتماعية والقومية والنفسية والميتافيزيقية والأسطورية".(١٧) ولعل المجذوب نفسه لم يعط النقاد والدارسين إشارات مباشرة أو غير مباشرة لانتمائه السياسي كما يفعل الكثير من الشعراء. ففي الصراع السياسي كان المجذوب منادياً بالحرية ومنحازاً للبسطاء، مما يدعو إلى القول بأن المجذوب شاعر البسطاء. وطوال مساره الشعري لم يلتزم الشاعر نهجاً سياسياً محدداً، بل إن بعض مواقفه السياسية تتسم بالتناقض الظاهري، فمن إعجاب بعبد الناصر إلى مدح للإخوان المسلمين الذين زج بهم عبد الناصر في السجون، ومن إعجاب بالسيد عبد الرحمن المهدي إلى عتاب للأنصار. الشيء الوحيد الذي التزم به الشاعر لبعض الوقت هو حماسه للحزب الجمهوري خاصة لزعيمه الشهيد محمود محمد طه. فهذه المواقف بالرغم من تباينها وتناقضها، إلا أن ثمة خيطاً يصل ما بينها وهو شغف الشاعر بالحرية دون التزام بمنهج سياسي معين إلى جانب رفض العنف مهما كان مصدره ومهما كانت مبرراته. فقد كانت الحرية هي ضالة الشاعر الكبرى، وقد قاده البحث عن الحرية للاستغراق في القضايا الاجتماعية والاحتفال

(١٧) انظر سامي سالم "موت الشعراء" الصحافة – العدد الصادر بتاريخ ١٩٨٢/٦/٧.

بعذابات البسطاء خاصة الأطفال والأمهات كما ذكرنا، ولا شك أن الظروف الاجتماعية ونشأة الشاعر تدخلت كثيراً في مساره الشعري. فالمجذوب ولد ونشأ في بيئة صوفية، ثم نال قدراً من التعليم النظامي، بعدها عمل موظفاً حكومياً جاب أقاليم البلاد طولاً وعرضاً وتفتحت بصيرته في فترة شهدت فيها البلاد أحداثاً جساماً، هذه الفترة هي بحق فترة بروز شخصية الأمة السودانية في العصر الحديث.

وقد عاش الشاعر فترات عصفت بصراعات سياسية حادة، بدأت بالنضال لأجل الاستقلال ثم الاستقلال فقيام الحكم العسكري الدكتاتوري، ثم ثورة أكتوبر ١٩٦٤م وانتكاس الثورة وهكذا. كان الشاعر شاهداً على العصر، إذ سجل شعره تاريخ البلاد السياسي والاجتماعي. وطوال مسيرته الشعرية لم يوال الشاعر نظاماً سياسياً ولم يتوسل لهذا التيار الأدبي أو ذاك، ولم يجذبه بريق الموضات السياسية والفنية. ففي جميع هذا كان الشاعر على وعي تام بما ارتضاه لنفسه من مواقف سياسية واجتماعية. والبعد عن الأحزاب السياسية موقف اختاره بصدق وآمن به.

لقد أحدث المجذوب ثورة على مستوى شكل ومضمون القصيدة العربية. هذه الثورة تعبر عن تطور الرؤية الشعرية، فقد ذهب إلى غير رجعة ذلك الزمن الذي كانت القصيدة الكلاسيكية فيه تستجيب لحاجات المجتمع التقليدي بكل فخامة هذا المجتمع وبذخه وثبات قيمه.[١٨] ولم يحدث الشاعر هذا التطور لعجز في شاعريته، فشاعر مثل المجذوب كان مؤهلاً بدرجة عالية لصناعة الشعر التقليدي، يدل على هذا الكثير من قصائده خاصة أعماله الشعرية الأولى، حيث حرص الشاعر على تجويد أدواته الشعرية وعلى مجاراة عيون الشعر العربي، وحتى في ديوان الشرافة والهجرة نجد الشاعر ينهج ذات النهج وذلك في قصيدته "ذهب الصبا"[١٩] على سبيل المثال، إذ يحاول الشاعر التودد للممدوح

(١٨) انظر على البطل، "أحمد شوقي وأزمة القصيدة التقليدية"، دراسة في ضوء الواقع السياسي والاجتماعي، مجلة فصول، مجلد ٣، عدد (١)، أكتوبر – نوفمبر – ديسمبر ١٩٨٢.

(١٩) ديوان الشرافة والهجرة، مارس١٩٨٣م، ص١٧٠ –١٧١.

عبد الله الطيب بإهدائه قصيدة كلاسيكية الشكل توفي الأغراض المتعددة للقصيدة التقليدية من نسيب ومدح وغزل ..الخ، ويحافظ الشاعر على قافية واحدة، بل إن الشاعر لا يخاطب المدوح مباشرة لكنه يخاطب حبيبة لا وجود لها في الواقع. وهذا جميعه مما يؤكد إمكانيات المجذوب وتعدد أدواته الشعرية، لكن شاعراً في رهافة حس المجذوب الاجتماعي، كان لابد أن يستجيب لقانون التطور وتكون استجابته إضافة ثرة للشعر العربي في العصر الحديث على مستوى الشكل والمضمون.